

إنصتوا للطيارين*

دافيد غروسمان

اليوم، بعد أن هدأت قليلاً العاصفة بشأن عريضة الطيارين، ربما أن الأوان للإنصات بانتباه لجوهر الأشياء التي أرادوا قولها. ذلك بأنه حتى إذا أسكت "صوت كبير" الطيارين في النهاية، وحتى إذا تراجع عدد منهم، يظل ثمة مفعول وأهمية للأشياء التي عبروا عنها. والمنطق الأساسي يقول أيضاً إن حكومة وشعباً يرسلان أبناءهما لينفذوا من أجلهما المهمة الصعبة، والوسخة أحياناً، المتمثلة في هذه الحرب المحددة، ينبغي لهما أن يسمعا مرة واحدة ما يقوله الأشخاص الذين يقومون بالأفعال باسمهما من دون تحوير أو تعديل.

في الخلاصة: إن رسالة الطيارين هي أنه على الرغم من حقيقة أن الفلسطينيين قادرون اليوم على ضرب إسرائيل والمواطنين الإسرائيليين بقسوة، فإن الحرب القائمة تظل، في نهاية المطاف، حرباً بين قوة عظمى عسكرية وسكان مدنيين. وفي حرب من هذا النوع، يجب أن تفرض إسرائيل على نفسها قيوداً عملية وخلقية.

إن الطيارين يذكرون إسرائيل بأنه على الرغم من أن هدف العمل العسكري هو ضرب قاتل يستحق الموت، فإن دولة تأمر طيارها بإسقاط قنبلة تزن طناً على حي في منطقة هي الأكثر ازدحاماً في العالم، وهي تعرف بوضوح أن مئات المدنيين قد يصابون، هي دولة تعمل، لا أقل، بحسب أساليب منظمة إرهابية؛ وعندما تأمر دولة طيارها بإطلاق صواريخ على سيارة تعبر الطريق بين المارة، ولو لم تكن ترغب في إصابتهم عن عمد، فإن طابع هذا العمل ونتيجته يشبهان طابع عمل منظمة إرهابية ونتيجته.

لا يحق لدولة أن تعمل كما تعمل منظمة إرهابية. ومن الجدير أن نتذكر ذلك أيضاً اليوم، بينما الدم هائج بعد العملية الوحشية في حيفا. وأحد أسباب ذلك هو التأثير المدمر لمثل هذا العمل في المجتمع نفسه. وسبب آخر هو أنه لا يحق لدولة أن تقوم بتصفيات وبأعمال اغتيال وقتل من دون محاكمة، لأنها بذلك تفقد شرعية جزء مهم من دعاويها ضد المنظمات الإرهابية.

وعندما يقول قائد سلاح الجو إن "على من يخرج ليقتل أطفالاً في إسرائيل أن يأخذ في الحسبان أن ثمة أطفالاً حوله قد يُقتلون"، فإن عليه أن يدرك أن من شأن هذا

(* المصدر: "هآرتس" (النسخة الإلكترونية)، 2003/10/8.

الادعاء أن يكون بمثابة سيف ذي حدين، حتى لو لم تضرب إسرائيل أطفالاً عن عمد. إن حكومة رافضة، تُفشل منذ زمن بعيد كل فرصة للمفاوضات، ولا تستعمل مع الفلسطينيين إلا القوة، تحكم على طياريتها بمعاناة مآزق خلقية لا تحتمل. هل من حقها أن تدير لهم ظهرها، وأن تشعر بالإهانة والصدمة عندما يبدأ هؤلاء الأشخاص، بعد أعوام، بإدراك ما يُستعملون من أجله؟ أما أن الأوان لمواجهة مضمون أقوالهم، وأمام المشهد الذي وضعوه - بجرأة ومع الاستعداد الكامل لدفع الثمن - أمام المجتمع الإسرائيلي بأكمله؟

لقد تبهرج الجيش الإسرائيلي دائماً بأن الأساس في سلاحه الجوي ليس الطائرة وإنما الطيار، الإنسان الذي في داخل الآلة. وجرت تربية كل جندي في الجيش الإسرائيلي على المبدأ (المتناقض) القائل بـ "طهارة السلاح"، وترعرع كل إسرائيلي على الإيمان بأن الجيش الإسرائيلي هو الجيش الأكثر خلقية في العالم. هل يمكن لقيادة الجيش الإسرائيلي أن تنكر وجود بشر هناك، داخل الطائرات والطوافات؟ ما هو سبب السكوت المطبق لدى معظم الجمهور، غير المستعد للإصغاء ولو لحظة إلى ضائقة الأشخاص الذين لا يطلب منهم محاربة العدو فقط، وإنما أيضاً أن يحملوا ضمائرهم، طوال حياتهم، القتل المفرط لأبرياء؟

ثمة شيء في ردة الفعل الهائجة وشبه الهستيرية للجمهور يثير الانطباع بأن "الهجمة" على الطيارين لا تنبع فقط من المعارضة الموضوعية لرفض الخدمة بالذات: يبدو أن الأمر الأصعب من أن يحتمل الذي فعله الطيارون هو أنهم مزقوا عن معظم الإسرائيليين بفجائية تامة الغلاف الواقعي الذي يغلفون به أنفسهم منذ أعوام، كي لا يعرفوا ولا يفهموا حقيقة ما يفعل باسمهم. ولعل هذا أيضاً ما يختبئ وراء تهمة الخيانة المبالغ فيها التي تلصق بالطيارين: ذلك بأنهم إن خانوا فهم خانوا فقط الإنكار الكبير المتفق عليه والعماء الجماعي.

لقد نجح الطيارون، للحظة واحدة، في إقامة الصلة المذهلة، والمكهربة، بين ما تفعله إسرائيل في المناطق منذ 36 عاماً وبين العمليات التفجيرية، وذلك ما لا يمكن مسامحتهم عليه كما يبدو. ذلك بأن تحقيقات عميرة هس وغدعون ليفي يمكن اختيار عدم قراءتها، لكن عندما يقوم طيارون عبريون، هم من طينة الإجماع الإسرائيلي ودرّة تاجه، بإجبارنا على النظر، ولو في طرفة عين، إلى قلب الظلمة الدامسة، يكون الحافز الأول هو مغادرة المكان بارتباك، وترقيع الثغرة التي فُتحت في الخوذة الدفاعية المتطورة التي تحرسنا من الإدراك والفهم، والهجوم فوراً - كما علمونا في الجيش الإسرائيلي - والرد بالحرب، ضد الطيارين هذه المرة. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>